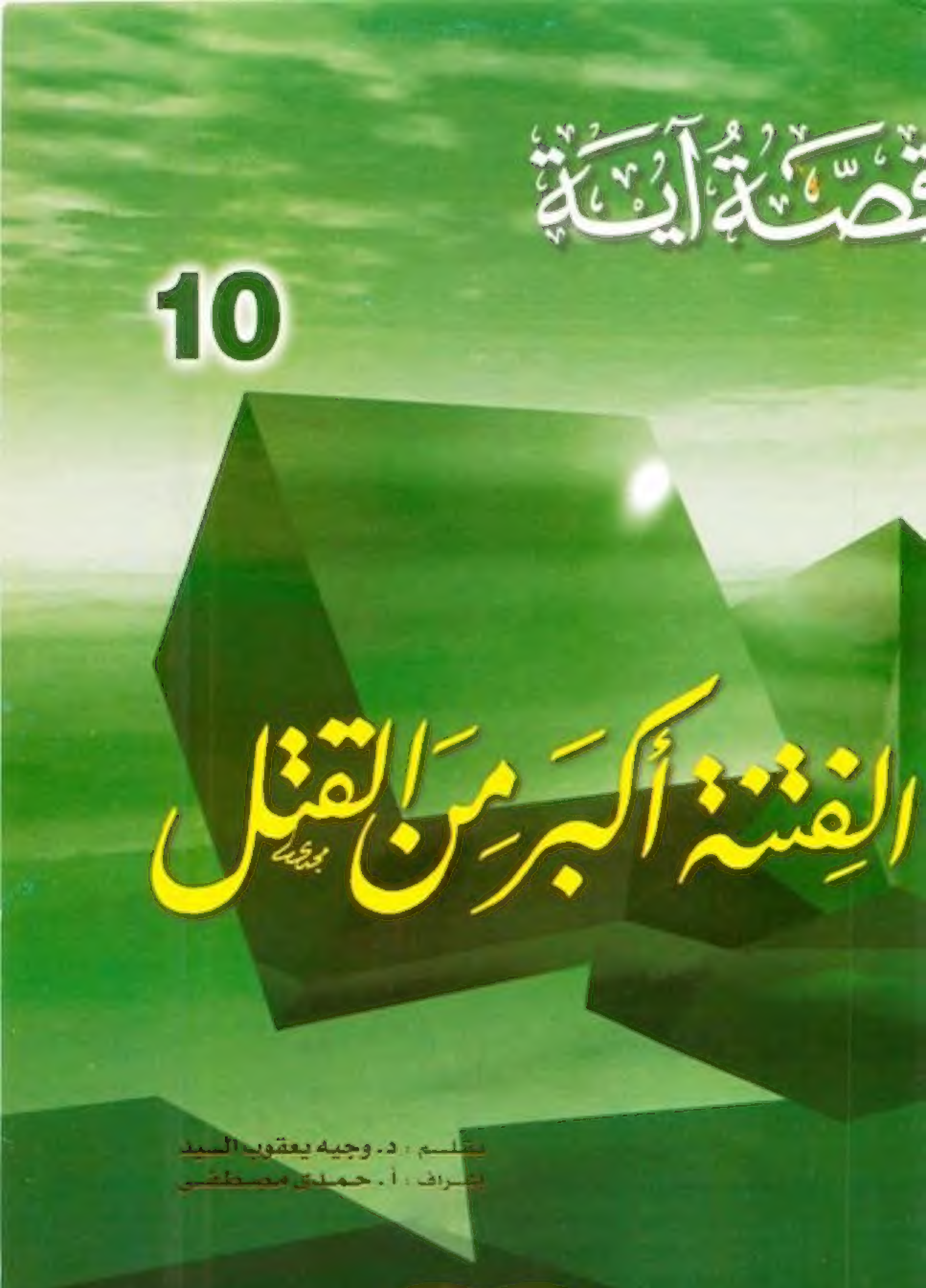

قصة آية
10
الفتنة أكبر من القتل
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدي مصطفى
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



قال (تعالى) :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

[البقرة : ٢١٧]

بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنَ عَمَّتِهِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ مَعَ ثَمَانِيَةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ قَبْلَ غَزْوَةِ بَدْرٍ فِى سَرِيَّةٍ ، لِكَىْ يَسْتَطْلِعُوا أَخْبَارَ قُرَيْشٍ وَيَتَعَرَّفُوا نَوَايَاهُمْ وَاسْتِعْدَادَهُمْ .

وأعْطَى الرَّسُولُ ﷺ كتابًا مُغْلَقًا لعبْد اللَّه بْنِ جحْش وقَالَ وهُوَ يُودِّعُهُ :

ـ سِرْ علَى اسْمِ اللَّه ، ولا تنْظُرْ فى الْكتاب حتَّى تسِيرَ يوْمين ، فإذا نزلْتَ منْزليْنِ فافْتَح الكتاب واقْرأْهُ علَى أَصْحَابِكَ ، ثُمَّ امْضِ لمَا أمرتُكَ ، ولا تَسْتكْرِهَنَّ أحدًا من أصْحابك علَى المسير معَكَ .

وامْتَثَلَ عبْدُ اللَّه بْنُ جحْشٍ لأَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ ، فسَارَ يوْمين كاملَيْنِ ، ثُمَّ نزَلَ وفَتَحَ الْكتابَ فإذَا فيه :

ـ بِسْمِ اللَّه الرَّحْمنِ الرَّحِيم ، أمَّا بعْدُ :

« فَسِرْ علَى برَكَة اللَّه بمَنْ تبعَكَ من أَصْحَابِكَ حتَّى تنزلَ بطْنَ نخْلَة ، فترَصَّدْ بها عيرَ قُريْشٍ لعلَّكَ أَنْ تأْتينا منْهُ بخَبرٍ »

فَلَمَّا نظرَ عَبْدُ اللَّهِ بنْ جُحْشٍ فِى الكِتَابِ قَالَ :

ـ سَمْعًا وطَاعَةً يا رَسُولَ اللَّهِ !

ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ :

ـ قَدْ أَمرنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَمْضِىَ إِلى بَطْنِ نَخْلَةَ أَرْصُدُ بِهَا قُرَيْشًا حَتَّى آتِيَهُ مِنْهَا بِخَبَرٍ .

ثُمَّ أَضَافَ قَائِلاً :

ـ وقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَسْتَكْرِهَ أَحَدًا مِنْكُمْ . فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيدُ الشَّهَادَةَ ويَرْغَبُ فِيهَا فَلْيَنْطَلِقْ ، ومَنْ كَرِهَ فَلْيَرْجِعْ ، فَأَنَا مَاضٍ لأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَقَالَ الصَّحَابَةُ جَمِيعُهُمْ :

ـ سَمْعًا وطَاعَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فَمَضَى عَبْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ ومَضَى مَعَهُ أَصْحَابُهُ

لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ أَحَدٌ . وفى الطَّرِيقِ ضَلَّ بَعِير لِسَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ وعُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ (رَضِىَ اللَّه عَنْهُمَا) فَتَخَلَّفَا عَنْ رَهْط عَبْدِ اللَّه بْنِ جَحْشٍ لِيَبْحَثَا عَنِ الْبَعِيرِ ، بَيْنَمَا وَاصَلَ عَبْدُ اللَّه بْن جَحْشٍ والسِّتَّةُ الْبَاقُونَ مَسِيرَهُمْ .

وفى أَثْنَاء سَيْرِ عَبْدِ اللَّه بْنِ جَحْشٍ وأَصْحَابِه إِذْ مَرَّتْ بِهِمْ عِيرٌ لِقُرَيْشٍ فِيها عمرو بْنُ الْحَضْرمِى ومَعَهُ ثَلاثَةٌ آخَرُونَ ، فَتَشَاوَرَ عَبْدُ اللَّه بْنُ جَحْشٍ مَعَ أَصْحَابِه فِيما يَصْنَعُونَهُ مَعَ هؤلاءِ .

سَأَلَ عَبْدُ اللَّه بْنُ جَحْشٍ أَصْحَابَهُ قائلاً :

ـ تُرَى مَاذَا نَصْنَعُ بِهَؤُلاءِ ، ونَحْنُ فى آخِرِ جُمَادَى أَوْ أَوَّلِ رَجَبٍ وهُوَ شَهْرٌ حَرَامٌ حَرَّمَ اللَّهُ فِيهِ الْقِتَالَ ؟

فَأَجابَهُ أَحدهُم :

ـ هَذا صَحيحٌ ، إِنْ نحنُ قاتَلْناهُمْ هتكْنا حُرْمَةَ الشَّهرِ الْحرامِ ، وإِنْ تركْناهُمُ اللَّيْلَة دَخلُوا الْحَرَمَ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وفَتَنُوا المسْلِمينَ فى دينهِمْ .

واجْتَهَدَ عَبْدُ اللَّه بْنُ جَحْشٍ وأَصْحَابُهُ فى حُدُودِ عِلْمِهِمْ وقَرَّرُوا لِقَاءَ هَؤُلاءِ الْكُفَّارِ والتَّصدِّى لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلى المسْجدِ الْحَرامِ .

وأَخْرَجَ واقِدُ بْنُ عبدِ اللَّه التَّميمِىُّ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ وَرَمَى بِهِ عَمرو بنَ الْحَضْرمِىِّ فَقَتَلَهُ ، وأَسَرَ المسْلِمُونَ اثْنَيْنِ مِنَ المشْرِكينَ ، بَيْنَمَا اسْتَطَاعَ ثَالِثُهُمْ أَنْ يُفْلِتَ مِنَ الأَسْرِ بِأُعْجُوبَةٍ ويَعُودَ إِلى مَكَّةَ .

وَمَا إِنْ عَلِمَ أَهْلُ مَكَّةَ بِمَا حَدَثَ حَتَّى اسْتَعْظَمُوا الأَمْرَ ، وَرَاحُوا يُشَوِّهُونَ صُورَةَ الإِسْلامِ وَالمسْلِمِينَ وَيَقُولُونَ :

ـ لَقَدِ اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، شَهْرًا يَأْمَنُ فِيهِ الْخَائِفُ وَيَسْعَى النَّاسُ لِمَعَاشِهِمْ ، فَسَفَكَ فِيهِ الدِّمَاءَ وَأَخَذَ فِيهِ الحَرائِبَ .

وَأَخَذَ المشْرِكُونَ يُعَيِّرُونَ المسْلِمِينَ المُقِيمِينَ بِمَكَّةَ بِهَذَا الصَّنِيعِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ فِي شَمَاتَةٍ :

ـ يَا مَعْشَرَ الصُّبَاةِ ، اسْتَحْلَلْتُمُ الشَّهْرَ الْحَرَامَ فَقَاتَلْتُمْ فِيهِ .

وَلَمْ يَكُنِ المسْلِمُونَ يَجِدُونَ مَا يَرُدُّونَ بِهِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، فَكَانُوا يَلُوذُونَ بِالصَّمْتِ انْتِظَارًا لِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) .

وَلَمْ يَتْرُكِ الْيَهُودُ المَوْقِفَ يَمُرُّ هَكَذَا دُونَ أَنْ يُحَاوِلُوا إِشْعَالَ الْفِتَنِ بَيْنَ النَّاسِ ، والادِّعَاءَ ضِدَّ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ بِالْبَاطِلِ فَقَالُوا :

ـ وَاقِدٌ : وَقَدَتِ الْحَرْبُ ، وَعَمْرُو : عَمِرَتِ الْحَرْبُ ، وَالْحَضْرَمِيُّ : حَضَرَتِ الْحَرْبُ .

وَعَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَأَصْحَابُهُ إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ قَامُوا بِالمُهِمَّةِ ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُمُ الْعِيرُ الَّتِي غَنِمُوهَا وَالأَسِيرَانِ اللَّذَانِ أَسَرُوهُمَا ، قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

ـ مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ .

ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهُمْ ﷺ وَأَبَى أَنْ يَأْخُذَ الأَسِيرَيْنِ وَالْعِيرَ .

وَنَظَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ إِلَى أَصْحَابِهِ وَنَظَرَ

أَصْحَابُهُ إِلَيْهِ ، وشَعَرُوا بِأَنَّهُمْ ارْتَكَبُوا جُرْمًا كَبِيرًا ، وأَنَّ اللَّهَ (تَعَالَى) قَدْ غَضِبَ عَلَيْهِمْ ، فَكَبُرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وانْهَمَرَتْ دُمُوعُهُمْ أَمَامَ هَذَا الْخَطْبِ الْجَلَلِ ، وحَاوَلُوا أَنْ يَعْتَذِرُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا :

ـ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّا قَتَلْنَا ابْنَ الْحَضْرَمِيِّ ثُمَّ أَمْسَيْنَا فَنَظَرْنَا إِلَى هِلَالِ رَجَبٍ ، فَلَا نَدْرِي أَفِي رَجَبَ أَصَبْنَاهُ أَمْ فِي جُمَادَى ؟

ثُمَّ أَضَافُوا :

ـ وقَدِ اجْتَهَدْنَا رَأْيَنَا فِي حُدُودِ عِلْمِنَا وفَوَّضْنَا الأَمْرَ إِلَى اللَّهِ .

وبِرَغْمِ تَوَسُّلَاتِهِمْ وبُكَائِهِمْ الْحَارِّ ، فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يُقِرَّ عَمَلَهُمْ وأَعْرَضَ عَنْهُمْ قَائِلًا :

ـ ما أَمرتُكُم بقتالٍ في الشَّهرِ الْحرامِ .

وتَأَثَّر صَحابةُ الرَّسول ﷺ بما رَأَوْهُ من الرَّسُولِ ﷺ فَعَاتبُوا عَبْدَ اللَّهِ بْن جحْشٍ وأَصْحَابَهُ بِشدَّةٍ ، وقَالُوا لَهُمْ :

ـ لَقَدْ أَغْضبْتُمُ اللَّهَ ورَسُولَهُ بانْتهاككُم حُرْمَةَ هَذَا الشَّهْرِ ، وسَوْفَ تُعَيِّرُنَا الْعَرَبُ بذَلِك حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ .

ولَمْ يجِدْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وأَصْحَابُهُ سِوَى الْبُكاء ، فَانْخرطُوا فى الْبُكاء الشَّديد حتَّى تقَرَّحَتْ جُفُونُهُمْ وخاصَمَ النَّوْمُ عُيُونَهُمْ .

وبعثَ أَهْلُ مكَّةَ فى فداءِ أَسيرَيْهِمْ فَقِيلَ لهُمْ :

ـ لا نَفْديهما حَتَّى يقْدُمَ سعْدٌ وعُتْبةُ ، وإنْ لَمْ يَقْدُما قتَلْنَاهُمَا بِهِما .

فَلمَا قَدم سَعْدٌ وعُتبَةُ قبل الرَسُولُ ﷺ مُفَادَاتهُما .

وبَعْد أن اشْتدَّ الأمْرُ بعبْد اللَّه بْن جحْشٍ وأَصْحابِه ، وأَكْثر النَّاسُ من الْحديث بِشأْنِهمْ أَنْزَلَ اللَّهُ (تَعَالَى) عَلَى رَسُوله :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

[البقرة : ٢١٧]

وما إنْ نزلت الآيةُ الكَريمةُ حتَى عاد الْهُدُوءُ

إلى أَصْحابِ السَّرِيَّة وقَام الصَّحَابَةُ إلَيْهِمْ يُهَنِّئُونَهُمْ بَعْدَ أَنْ برَّأَ اللَّهُ ساحتَهُمْ .

وأَخَذَ الرَّسُولُ ﷺ الْعِير فعزَلَ منْها الخُمْس فَكَانَ أَوَّلَ خُمْسٍ فى الإسلام ، وقَسَّمَ الْبَاقِى بَيْن أَصْحَاب السَّرِيَّة ، فَكَانَ أَوَّلَ غنيمَة فى الإِسْلامِ .

لَقَدْ نَزلتْ هَذِه الآيَةُ الكرِيمَةُ ، وقطَعَتْ كُلَّ قَوْلٍ ، وفصلتْ فى الموْقف بِالْحق ، فَقَبض الرَّسُولُ ﷺ الأَسِيرَيْنِ والْغنيمَةَ بعْدَ أَنْ رَضِى اللَّهُ عَنْ صَنيعِ عبْد اللَّهِ بْنِ جحْشٍ وأَصْحَابِه .

« إنَّ المسْلِمِينَ لم يبْدءُوا الْقتال ، ولَمْ يبْدءُوا الْعُدْوان ، إنَّما هُمْ المشْرِكُون ، هُمُ الَّذِين صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّه ، وكَفَرُوا بِه وبالمسْجد الْحرامِ .

ولَمْ يتورَّعِ المشْرِكُون عن انْتِهاك حُرْمَة

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِيذَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَصَدٍّ النَّاسِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِكَافَّةِ الْوَسَائِلِ .

لَقَدْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَجَعَلُوا النَّاسَ يَكْفُرُونَ ، وَلَقَدْ كَفَرُوا بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَانْتَهَكُوا حُرْمَتَهُ ، وَآذَوُا الْمُسْلِمِينَ وَفَتَنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْحَرَمِ وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِى جَعَلَهُ اللَّهُ آمِنًا ، فَلَمْ يَأْخُذُوا بِحُرْمَتِهِ وَلَمْ يَحْتَرِمُوا قُدسِيَّتَهُ »

وَإِخْرَاجُ الْمُؤْمِنِينَ الْعَابِدِينَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْقِتَالِ فِى الشَّهْرِ الْحَرَامِ .

كَمَا أَنَّ فِتْنَةَ النَّاسِ عَنْ دِينِهِمْ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْقَتْلِ . وَقَدِ ارْتَكَبَ الْمُشْرِكُونَ كُلَّ هَذِهِ الْكَبَائِرِ ، فَقَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِى الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، كَمَا مَنَعُوهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ أَوِ الاعْتِمَارِ فِى الْبَيْتِ الْحَرَامِ .

وبذلكَ فلا حُجَّةَ لهُمْ ، وكانَ علَى المسلمينَ أَنْ يُقاتلوهُمْ فى أىِّ وَقْتٍ وفى أىِّ مَكانٍ ، لأَنَّهُمْ عادُونَ وظالمونَ ، لا يُراعُونَ حُرْمَةَ مَكانٍ أوْ زَمانٍ ، ولا يَلْتزِمُونَ بعُهُودٍ ولا يُقدِّسُونَ شَيْئاً سِوَى الْقُوَّةِ والْبَطْشِ .

إنَّ الإسْلامَ هُوَ دينُ المبادئِ الْحَقيقيَّةِ ولَيْسَ دينَ الشِّعاراتِ الْجوْفاءِ ، وهُوَ دينٌ يَحْترِمُ الْكَلمَةَ والْعُهُودَ ، ويُراعى الْحُرُماتِ والمقدَّساتِ ، وقَدْ وضَعَ أُصُولاً وأَحْكامًا شامِلَةً يُمْكِنُ الرُّجُوعُ إلَيْها والاحْتِكامُ إلَيْها فى شَتَّى جوانِبِ الحَياةِ .

فَعِنْدما كانَ المسْلمونَ يَخْرُجونَ للْقتالِ كانَ

الرَّسُولُ ﷺ يُوصِيهِم بِألاَّ يَقتُلُوا شَيخًا أَو طِفلاً أَو امرَأَةً أَو مَرِيضًا أَو عَابِدًا فِى صَومَعَتِه وَألاَّ يَقطَعُوا زَرعًا وَألاَّ يُمَثِّلُوا بِالقَتلَى .

وَلَم يَبدَأ المُسلِمُونَ بِالاعتِدَاءِ أَو الظُّلمِ فِى أَىِّ قِتَالٍ ، إِنَّمَا كَانُوا يُدَافِعُونَ عَن أَنفُسِهِم ، وَكَانُوا يُجَاهِدُونَ لِنَشرِ دِينِ اللَّهِ بَينَ النَّاسِ ، وَلَم يُجبِرُوا أَحَدًا عَلَى اعتِنَاقِ الإِسلامِ بِالقُوَّةِ ، بَل عَرَّفُوا النَّاسَ بِالإِسلامِ وَتَرَكُوهُم لأَنفُسِهِم يَختَارُونَ مَا يَشَاءُونَ ، فَمَن شَاءَ فَليُؤمِن وَمَن شَاءَ فَليَكفُر .

فَأَينَ كُلُّ هَذِه المَبَادِئُ الجَمِيلَةِ وَالنَّظِيفَةِ مِن قَوَاعِدِ الحَربِ وَالقِتَالِ الَّتِى وَضَعَ البَشَرُ حَدِيثًا وَقَدِيمًا أُصُولَهَا ؟! إِنَّ الحَربَ العَالَمِيَّةَ الثَّانِيَةَ رَاحَ ضَحِيَّتَهَا أَكثَرُ مِن ثَلاثِينَ مِليُونَ إِنسَانٍ ، وَقَد

اسْتَخْدَمَت الدُّوَلُ الكُبْرَى أَسْلحَةَ الدَّمارِ الشَّامِلِ ، فَقَتَلَتْ عَشَرَاتِ الأُلُوف مِنَ الأَطْفَالِ والنِّساءِ والشُّيُوخِ كَمَا لَوَّثَت الْبِيئَةَ .

وعِنْدَمَا حَارَبَتْ بَعْضُ الدُّوَلِ الْغَرْبِيَّة ضِدَّ بَعْضِ الدُّوَلِ الإِسْلامِيَّة . كَانَتْ هَذِه الحُرُوبُ هَمَجِيَّةً بِمَعْنَى الْكَلِمَةِ ، فَقَدْ مَنَعُوا السِّلاحَ عَنِ المسْلِمِينَ في البُوسْنَةِ وكُوسُوفَا ، بَيْنَمَا أَعْطَوُا السِّلاحَ للصِّرْبِ واكْتَفَوْا بإِدانَته بالْكَلامِ .

إِنَّ الإِسلامَ هُوَ دِينُ المبادئ ـ كما قُلْنَا ـ وهُوَ دِينُ اللَّه (تعَالَى) الخَاتَمُ الَّذى سَيُظْهِرُهُ اللَّهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه ولَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ ..

رقم الإيداع : ١٧٥٧٧

الترقيم الدولى : ٩٧٧ـ٢٦٦ـ٣٦٢ـ٧